حمدى عباس

سيكولوجية المقاتل فى حرب أكتوبر

لم تكن حرب أكتوبر من الناحية النفسية حرباً تقليدية لتحرير أرض مغتصبة فحسب ، بل كانت عملاً مجيداً أكّد به المقاتل العربىّ قدرته الحقيقيّة على التخطيط والتفكير المنطقى السليم ، بعد أن أشاعت كل وسائل الدعاية المضادّة أن المقاتل العربىّ لا يستطيع فى أىّ مرحلة من مراحل الصراع العربىّ الإسرائيلى أن يخطّط تخطيطاً علمياً ناجحاً لحرب ناجحة ، يخوضها تنفيذاً لهذا التخطيط المبنىّ على الحسابات الدقيقة ، ليحقق فى النهاية نصراً عسكرياً مشرفاً . ومن هذا المنطلق لم تكن حرب أكتوبر حرب استعادةِ أرضٍ سليبة فحسب ، وإنما كانت حرب استعادةِ ثقة .

لقد وجد المقاتل المصرىّ نفسه يعمل فى ظروف تختلف تماماً عن الظروف التى عمل فى ظلها قبل حرب ١٩٦٧ وفى أثنائها . تلك الظروف كانت قائمة على سياسة استعراض القوة المظهرية دون تثبيت لدعائم هذه القوة – ولقد حدث قبل حرب ٦٧ أن قام الجيش المصرى بمناورات حربية اعتبرتها القيادة على درجة كبيرة من الأهمية ، فسارعت جريدة أمريكية تمولها عناصر صهيونية ، وبالاتفاق مع المخابرات الإسرائيلية بنشر موضوعٍ عن هذه المناورات ، وجاء فى صدر صفحتها

الأولى أن « مصر تملك أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط » . . وتناقلت وكالات الأنباء هذا الخبر على أساس أنه سبقٌ صحفى . . حتى وصل إلى الصحف المصرية فأبرزته فى صدر صفحاتها الأولى . . مُصدقةً ومُسلِّمة بكل ما جاء به . واستشرى هذا الشعور داخل الجيش . أى أن الإحساس بالقوة فى تلك الفترة لم يكن قائماً على أسس واقعية وعلمية مدروسة ، بل كان قائماً على « الإيهام بالقوة » ، مَهَّدت له وسائل الدعاية المضادّة ، فصدَّقناه . . وبعد أن خُدِّرت نفوسُنا سَعَتْ إسرائيل إلى كل دول العالم تطلب العون والمساعدة والمال والسلاح ، بصفتها الدولة الضعيفة فى المنطقة . وكنا نحن أول ضحايا « وهم القوة » .

واستُدرِجنا بعد ذلك إلى حرب ٦٧ ، ثم حدثت الهزيمة العسكرية . لم يكن فقدان الأرض هو أفدح خسائر هذه الحرب ، بل كاد أن يكون الانهيار النفسىّ وفقدان الثقة أفدحَ الخسائر وأقساها . . لقد استطاعت إسرائيل احتلال الأرض . . وحاولت « احتلال » نفسية المقاتل . ولكن هزيمة ٦٧ العسكرية ألقت ضوءاً كاشفاً قويًا تبيَّنَا خلاله العيوب والأخطاء والمهازل التى وقعت ؛ ومن ثَمَّ خرج الشعب ليُعلن على العالم رفضَه الهزيمة وإصرارَه على مواصلة النِّضال الحقيقى لاستعادة الأرض . . واستعادة الثقة .

تغيَّرت القيادات . . وتغيَّر معها أسلوب العمل . . وبدأت القوات المسلحة عملية التخطيط السليم والحسابات الدقيقة وتطبيق الأسلوب العلمى فى إدارة شئون الجيش المختلفة . . فأوفدت الضباط والجنـــود أيضاً فى بعثات دراسية لدول متقدمة علميًا ، وصديقة . . وبدأت مرحلة من العمل الشاقّ الرهيب الصامت ، رفَعَتْ فيها القوات المسلّحة شعار « العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعارك » .

وكان لتجنيد المؤهَّلين علميًا أثر بالغ فى تطوير أساليب العمل داخل القوات المسلحة . فقد تغير الأمر تغيُّراً كليًا بعد أن صار الجندىّ « الأمىّ » – الذى كان يتعامل بصعوبة بالغة مع بندقية بسيطة التركيب – مقاتلاً جامعيًا أو متعلماً تعليماً متوسطاً ، يتعامل بفهم ووعى وذكاء مع آلات معقَّدة التركيب وصواريخ تعمل إليكترونيًا . وهذا التغيُّر قد أتاح الفرصة أمام القيادات للتوسع فى عملية استيراد

الأسلحة الحديثة والمعقدة والأجهزة الإليكترونية ، وهى على يقين أن هناك عقولاً تستوعب تعقيد هذه الأسلحة ، وتستطيع أن تتعامل بها مع العدو فى براعة تسندها الشجاعة وتؤيدها الثقة . .

والأهم من ذلك أن العلاقة بين أفراد « الوحدة » العسكرية قد تغيرت أيضاً . . . فعلى سبيل المثال كان الجندىّ المتخرج فى الجامعة ، يعمل تحت قيادة « ضابط » متخرج فى الجامعة أيضاً . . وربما متخرج فى الكلية نفسها . . أو فى دفعة التخرج التى تخرج فيها هذا الجندى – واستوعب الضباط خريجو الكلية الحربية – المؤهلون علمياً وعسكرياً – هذه الروح الجديدة ، وصار ارتباط الجندى بوحدته ارتباط زمالة وصداقة وتفاهم متبادل ، فى إطار من الاحترام والانضباط الذى تفرضه التقاليد العسكرية .

ومن ناحية أخرى قام هؤلاء الجنود المؤهلون ، بعملية توعية وتثقيف وتعليم لزملائهم غير المؤهلين علمياً داخل الوحدة . وبذلك انتقلت القوات المسلحة إلى مرحلة جديدة من العلاقات . . علاقات التفهُّم العميق من المقاتلين للمعدات المعقدة التركيب . هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى . . علاقات إنسانية متبادلة بين المقاتل وقادته ، مما أدَّى إلى بلورة الهدف وراء هذا العمل الشاقّ الرهيب الدَّءوب الصامت .

وتوافرت لدى القيادة كل الظروف للعمل على استرداد أهم ما فقدته فى حرب ٦٧ ، وهى « الروح المعنوية » وذلك بما عرف باسم « حرب الاستنزاف » . لقد كانت هذه الحرب حرباً نفسية قبل أن تكون عمليات حربية تقليدية . . ومهما قيل عن الخسائر المادية التى تعرضت لها مدن القناة أو قواتنا فى العراء ، فإن هذه الحرب التى لم تتجاوز مجموعة عمليات عسكرية خاطفة قد أكدت حقيقة لا تقبل الجدل ، هى أن بوسع الجندىّ المصرىّ أن يستردّ مكانته بين جيوش العالم عن جدارة واستحقاق .

إن أسوأ اللحظات التى تمر بالجندى المقاتل هى لحظات البقاء فى خندقه . . يتدرّب وينتظر ، ولا شىء غير هذا . . فهذه اللحظات تجعله نهباً لصراعات نفسية

عنيفة . . وتصبح نفسية الجندى بذلك . . أرض عمليات لحرب غريبة . . هى الحرب النفسية . . والنصر العسكرى لا يحرزه إلا من ينتصر فى هذه الحرب النفسية . . وتعد هذه الحرب - التى خاضتها قواتنا المسلحة طيلة سنوات الاستعداد والترقب - من أشرس الحروب النفسية التى شهدها تاريخ الحروب .

إن حجر الزاوية فى بناء الحرب النفسيّة هو « العقيدة القتالية » . فالعقيدة القتالية للجيش المحارب هى التى تبلور كل الحقائق أمامه وتوضح له الرؤية وتحدِّد له الأهداف التى من أجلها يدور القتال . . وفى حرب ٦٧ لم تكن هناك عقيدة قتالية واضحة ومقنعة أمام المقاتل . . بل كانت هناك عدة « مسوّغات » لا « عقائد » . فتارة يقولون له إنه ذاهب لتطهير القدس . . وتارة أخرى للدفاع عن شرفه وعرضه . . ثم رفعوا له شعار « حماية عملية بناء المجتمع ضد الأخطار الخارجية » . . وتضاربت « المسوغات » والشعارات حتى أصبح الذهاب إلى الميدان عملاً غير مفهوم . فالمقاتل لا يعرف شيئاً عن سلاحه . . ولا عن طبيعة الأرض التى يقف عليها . . ولا عن الاسباب التى أدت لذهابه هناك . لذلك كان لا بد من حدوث تغيير جوهرى يؤدى إلى ظهور عقيدة قتالية . . سهلة الإدراك ومقنعة . . يتفاعل معها المقاتل ويقتنع بها .

العقيدة القتالية بين مصر وإسرائيل

لقد فرض الواقع التاريخى صياغة العقيدة القتالية للقوات المسلحة المصرية . فبعد أن فقدنا الأرض كان علينا أن نحدّد الهدف وهو تحرير هذه الارض . وهكذا تبلورت العقيدة القتالية ، وأصبح الهدف واضحاً ومقنعاً . وصارت الرؤية واضحة أمام المقاتلين ، وأضحى كل فرد داخل القوات المسلحة يعرف أن العمل المكلف به هو « تحرير الأرض » . بعدها . . زال الغموض . . ولم يعد هناك مجال للبحث عن مسوّغات للقتال . . المسألة بساطة . . أن هناك أرضاً مغتصبة بالقوة . وأنه يجب « تحرير هذه الأرض » . . بالقوة أيضاً .

وعلى الضفة الأخرى من قناة السويس كانت هناك قوات مغتصبة تحاول

صياغة عقيدتها القتالية منذ عام ١٩٤٨ . . والواقع أن من يعتقد فى وجود عقيدة قتالية واضحة وثابتة للجيش الإسرائيلى ، مخطئ واهم . . لقد حاول حاخامات الجيش الإسرائيلى الربط بين ما جاء فى كتبهم المقدسة وأطماعهم التوسعية وأحلامهم بتكوين إمبراطورية تمتد من النيل إلى الفرات . . ولكنهم أخفقوا فى ذلك . . فالمجتمع الإسرائيلى مجتمع ممزق . . يعانى من التناقضات . . والصراعات المختلفة ومن الأطماع والأحلام الشخصية . .

وبوسعنا أن نتخذ من بين أسرى الجيش الإسرائيلى اثنين فقط نموذجاً لهذا المجتمع المتناقض ، أحدهما محام يهودى أرجنتينى برتبة « رقيب » ترك وطنه الأصلى الأرجنتين سعياً وراء أحلام امتلاك قطعة أرض يدافع عنها ببندقية صيد ضد شرذمة من العرب المسلحين بالخناجر . . (هكذا قالوا له) . . أى أنه جاء سعياً وراء المغامرة والبطولة والتملك . وحين وصل إلى إسرائيل وجد نفسه فجأة داخل « أوفارول » لونه أخضر داكن . . ثم وجد نفسه فجأة فى مواجهة جيش نظامى قوى . . ثم وجد نفسه فجأة أيضاً ، بعد يومين من وصوله إلى الجبهة أسيراً لهذا الجيش النظامى . . القوى ! ! ! لقد اعترف هذا المحامى الأرجنتينى باستعداده للعودة إلى وطنه الأصلى « الأرجنتين » ، بعد أن تكشفت أمامه الحقائق . . كان الرجل يشعر بالحسرة والندم ، ولكن بعد أن فقد ذراعه اليسرى فى المعركة الخاطفة التى أدت إلى وقوعه فى الأسر . . ! !

النموذج الثانى « نقيب » إسرائيلى من مواليد إسرائيل عام ١٩٤٨ . . عاش طيلة حياته فى مستعمرات « الكيبوتز » . . تم أسره فى إحدى المعارك الخاطفة بعد أن قُتل كل من كانوا معه وعددهم حوالى ستة وعشرين ، بواسطة مجموعة من رجال القوات الخاصة المصرية عددهم اثنا عشر مقاتلاً فقط ! ! ! هذا النقيب لا يعرف عن « القضية » غير المعلومات المحددة التى صاغوها له فى الكيبوتز . . لقد جاء إلى الدنيا وهو لا يعرف إلا أن فلسطين أرضه . . وأن الصهيونية قد حررتها من المغتصبين العرب ! ثم أقنعوه بأن على جيله أن يعمل ليسترد ما تبقى لهم من أرض اغتصبها العرب من النيل إلى الفرات ! وبرغم أن هذا النقيب قد اعترف بإلحاده

وبأن أسرته كلها ملحدة وبأنه لا يؤمن بالخرافات الواردة فى التوراة والتلمود ! ! فإنه بادر بالقول إنه يعتبر التوراة سجلاً تاريخيًّا لحركة الشعب اليهودى . . ورفض بعد ذلك أن يناقش أية فكرة تتعارض مع هذه الأفكار (المزروعة فى دماغه) .

وليس الهدف هنا تحديد أى الرجلين على صواب ، ولكن هذين النموذجين يصوِّران مدى التناقض الذى يعانى منه الجيش الإسرائيلى . . إنه جيش واحد لكنه منقسم على نفسه عقائديًّا بين مؤمن شديد الإيمان بعقيدته ، وآخر لا يهمه سوى المجد الشخصى وبطولات قصص الغرب .

ولقد وصل التناقض مداه حين أصبح من المقرر داخل الجيش الإسرائيلى أن المهاجرين من أمريكا وأوربا يخدمون فى الجيش داخل إسرائيل بعيدين عن الجبهة . . أما المهاجرون من الدول الشرقية والعربية فيدفعون بهم إلى الجبهة أمام القوات المصرية ، أو على حد تعبير أحدهم « فى مواجهة الجحيم » . . ولهذا نشأ داخل الجيش الإسرائيلى صراع حاد بين اليهود السفرديم . . والأشكيناز .

كان هذا التناقض الصارخ ، وهذا الشرخ فى بناء الجيش الإسرائيلى ، هو مجال هجوم الحرب النفسيّة المصرية التى شنّتها قواتنا ضد قوات العدو . أما مجال عمل الحرب النفسية الإسرائيلية بعد ٦٧ فقد كان الدعاية المضادة القائمة على الصَّلَف والغرور . . والتى تحاول بمختلف الطرق تثبيت فكرة « الجيش الذى لا يقهر » ، وأن المقاتل المصرى لا يمكن أن يثبت أبداً أمام هذا الجيش فى أية مواجهة . . وكانت حجتهم فى ذلك أن جيشنا قد هُزم من قبل فى ثلاث جولات متتالية .

ولكن القيادة المصرية اتبعت أسلوباً جديداً فى مواجهة هذه الحملة الدعائية المسمومة التى استهدفت احتلال « رقعة أرض » داخل نفسية المقاتل وعقله . . كما احتلت أرضه من قبل ! كان الردُّ هادئ النبرةِ خالياً من التشنّجات واقعيًّا عمليًّا . . لا بد أن تعود إلى المقاتل العربى ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قادته ، وفى عدالة قضيته . . لذا جاء الرد بسيطاً للغاية . . أن يقف المقاتل بنفسه على مدى كذب هذه الادعاءات ، ويتعرّف على حقائق الموقف وعلى أصالة معدنه ، ومن ثمّ بدأت

وحدات صغيرة من القوات المسلحة المصرية تقوم بعمليات عبور . . محددة هدفها . . هو :

١ – بثّ الذعر فى صفوف العدو . .

٢ – بعث الثقة فى نفس المقاتل وفى سلاحه .

لقد قامت وحدة مصرية بعملية عبور ناجحة داخل خط بارليف . . وما إن عَبَرَ أفراد هذه الوحدة إلى الأرض المحتلة حتى أحسّوا أنهم أمام الله ، وفى كنفه ، وفى مواجهة التاريخ ، وأن اللحظة التى يعيشونها هى ألف عام . . هذه حبات الرمل التى يجب أن تُستَرَدَّ كل حبة منها بقطرة دم ، أحسّ الرجال أنهم أمام تجربة مصيرية يجب أن تنجح ، ولو أدّى الأمر إلى فنائهم جميعاً . . ولبثوا فى أماكنهم صامتين يترقّبون « الصيد » المنتظر . . وبعد لحظات قضوها فى ضحك مكتوم وتندّر وتنكيت كعادة المصريين . . ظهر الصيد . . وفجأة مزّقت الرصاصات جوف الصمت الأخرس . . وزمجرت الرشاشات ، واستحالت بقعة الأرض إلى جحيم مستعر . . وأصيب أفراد « الصيد » بذهول شلّ قدراتهم . . وسرعان ما تناثرت الأشلاء والجثث . . وعلا الصراخ بالعبرية بعبارة واحدة متكررة « النجدة ! ! المصريون ! ! المصريون ! ! » .

تمّ القضاء على الصيد . . وكان لا بد من عودة أبطالنا إلى الضفة الغربية ومعهم « الحلو » ! ! و « الحلو » عند الأبطال هو الأسير ! ولاح لهم جنديان يجريان فزعاً وهرباً . . ولم يتردّد المقاتل عبد المقصود فى تتبعهما وحده . . وأمسك بهما دون أن يطلق طلقة واحدة من مدفعه . وعادت المجموعة إلى أرض الوطن ومعها « الحلو » بعد أن حقّقت مهمتها بنجاح .

عادت الوحدة وهى تحمل إحساساً جديداً . . لم يكن سعادة غامرة وفرحة بالنجاح . . وإنما كان إحساساً بالارتياح . . لقد تمت المواجهة . . ووقف المقاتل المصرى فى مواجهة المقاتل الإسرائيلى ، ليحقق مهمته بأعصاب ثابتة ، ملتزماً بالأوامر المحدّدة ، منفذاً ذلك المخطط الموضوع بعد دراسة علمية دقيقة .

وأكّدت مثل هذه العمليات أن الدعاية التى تروّجها إسرائيل دعاية كاذبة ،

تعتمد على الكثير من المغالطات التى دفعت هى ثمنها بعد ذلك .

كان المقاتل المصرى يعود من عمليات العبور المحدودة ، فيحكى عن بطولاته وقدراته فى مواجهة جنود العدو ، فيثير هذا حميّة الرجال ويشعل حماستهم . . وأصبح العبور هدفاً ، وحلماً ، وأمنيّة شخصية . . الكل يرغب فى العمل . . الكل يهدف إلى تحرير الأرض . . الكل يسعى إلى النصر ، أو الشهادة . .

ومن هنا قضينا على « الأسطورة قبل الحرب » . . ومن هنا استعاد المقاتل المصرى ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قيادته ، وفى عدالة قضيته . . وعقيدته القتالية . وأصبح قادراً على خوض معركة التحرير . . لكن كان عليه أن ينتظر . . وبقى على القيادة أن تُجرى حساباتها بدقّة . . وأن ترقب المتغيرات الدولية . . وترسم خططاً تعتمد كل الاعتماد على الأساليب العلمية فى الإدارة . . إدارة النيران . . وإدارة المعارك .

وتحقق لنا النصر فى الحرب النفسية . . قبل أن يتحقق فى المعارك الحربية .

وبعد أن حققت حربنا النفسية أهدافها إلى حد كبير ، وأحرزت نتائج لا بأس بها فى كثير من الأحيان ، بدأت مرحلة الاستعداد للحرب . لم تكن هناك ديكتاتورية فى التفكير أو التخطيط . . بل كانت هناك دراسات وبحوث وحقائق علمية وآراء مختلفة ومتعارضة . . تخرج من احتكاكها نتائج ثابتة وواضحة . . وتمت دراسة دقيقة مرهقة للاحتمالات السياسية الدولية كافة . . والمتغيرات ، والاقتصاد ، والسلاح ، والذخيرة ، والرجال ، والاحتياط ، واليوم ، والساعة ، وزاوية ميل الشمس ، وسرعة تيار الماء فى القناة ، والتنسيق بين الجبهات ، والتمويه والخداع . . و . . انطلق القرار كالرصاصة . . مارقاً . . مدوّياً . . « العبور . . لتحرير الأرض » . .

لم يحدث أن قرأنا من قبل فى تاريخ الحروب المعاصرة عن قوات حربية تذهب إلى ميدان القتال ، والسعادة تغمر رجالها ، والفرحة تعلو وجوه المقاتلين . . ولكن حدث هذا للجيش المصرى لحظة صدور الأوامر بالتحرك تجاه الأرض المغتصبة لتحريرها . لم يكن أحد يجهل أن الحرب آتية لا محالة . . لكن قرار

الحرب كان يحمل فى طياته مفاجأة لها مذاق خاص . . فقد كانت هذه ساعة الخلاص . . لقد وقف الجنود والضباط يتعانقون فى فرحة وسعادة مجنونة . . فقد أسكرهم منظر الطائرات المصرية بأعدادها الهائلة وهى تعود من داخل سيناء ، بعد أن دكت حصون العدو ومطاراته فى عمق سيناء ، ومهّدت الطريق للرجال ليحرّروا الأرض . . وصاح أحد المقاتلين قائلاً : « أخيراً رأيت سلاحنا الجوى يعمل بجانبنا . أنصتْ إلى أزيز الطائرات وهديرها . . إنه نغم ! ! » .

واندفع المقاتلون . . وخرجت من حناجرهم صيحة « الله أكبر » قبل أن تفسح المجال لصراخ الطلقات المحمومة ، وزمجرة الدانات ، وزئير الصواريخ وتمت المواجهة التى كان ينتظرها كل مقاتل منذ ستة أعوام . .

ولعلى لا أذيع سرًّا حين أقول إن دقة التخطيط وحكمته وصلت إلى حدّ أن القيادة أجرت « بروفات » لهذه الحرب قبل موعد التنفيذ بعام كامل . . وكان لهذا الجهد الخارق فى التخطيط والتنفيذ أثرٌ بعيد المدى لدرجة أن خسائرنا فى اليوم الأول للقتال لا تكاد تذكر . . فى حين أن الخبراء العسكريين توقّعوا أن خسائر محاولة العبور فقط قد تبلغ حوالى ٧٥٪ من القوة البشرية والعتاد ولكن الشعار الذى رفعته القوات المسلحة « العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعارك » قد تحقق برغم كل التوقعات .

لا أحد يجهل قصص البطولة والفداء التى شهدتها أرض سيناء . . لا أحد ينسى الرجال الذين ألقوا أجسادهم فوق الألغام ليمر زملاؤهم فوق جثثهم ! ! . . لا أحد ينسى الرجل الذى سدّ بجسده دشمة مدفع لا تتوقف طلقاته . . ليمنعها . . حتى يعبر زملاؤه إلى هذ الحصن ويدمروه ! . . لا أحد ينسى الرجل الذى رمى جسده فوق السلك الشائك الذى أحاط بموقع حصين ليعبر الرجال فوق جسده ويدمروا هذا الموقع ! . . لا أحد ينسى هذه الأعمال الخارقة والبطولات الفذّة التى أكدت أصالة المقاتل العربى وشجاعته وبطولته .

لم يكن الإحساس الذى سبق الحرب إحساساً بالخوف التقليدى الذى يشعر به المقاتلون فى أى مكان فى العالم قبل الحرب . . بل كان إحساساً بالارتياح . . .

إحساساً بأن لحظة الثأر الشخصى قد حانت . . إحساساً بأن الرجل فى طريقه ليطفئ جذوة النار التى ظلت متأججة فى صدره ست سنوات . . إحساساً بالخلاص !

إن هذه الروح التى انطلقت فى العاشر من رمضان . . لم تكن روحاً مكتسبة . . أو وليدة ظروف خاصة . . بل كانت روحاً أصيلة أطلقتها هذه الحرب من مكامنها . . وحيث إنها شىء ثابت لا يتغير ولا يفنى أو يتبدد فسوف تظل أبد الدهر باقية كما هى . . زاداً يخوض بها المقاتل ما بقى من جولات أخرى .